١٩٥- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ طَرِيفِ بْنِ خَلِيفَةَ الْبَجَلِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ، حَدَّثَنَا أَبُو مَالِكٍ الأَشْجَعِيُّ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ وَأَبُو مَالِكٍ، عَنْ رِبْعِيٍّ، عَنْ حُذَيْفَةَ؛ قَالَا: قَالَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: «يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ؛ فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ؟! لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الله -قَالَ:- فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ الله وَرُوحِهِ، فَيَقُولُ عِيسَى صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ». قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: «أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟! ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ؛ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا -قَالَ:- وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ؛ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ». وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ! إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا[١].

---

[١] هذا الحديث فيه شفاعة أخرى غير الشفاعة السابقة، فإن الشفاعة السابقة في القضاء بين الخلائق، وهذه الشفاعة في فتح باب الجنة؛ لأن الناس ينتهون إلى ذلك فيجدون الباب غير مفتوح؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا

﴿جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧٢]، فدلَّ العطف على أن هناك مسافة بين مجيئهم وبين فتح أبوابها، وهو هذا الاستشفاع، أما النار فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧١] فليس هناك مسافة يتساقطون فيها، وقول آدم عليه الصلاة والسلام: «وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْـجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ؟!» فيه دلالة صريحة واضحة على أن الجنة التي أسكنها آدم، ليست جنةً في الأرض وأنها عبارة عن ربوة فيها بساتين وأشجار، وما أشبه ذلك، كما قيل به، **والصواب**: أنها جنة الخلد، أُسكنها آدم، ثم أُخرج منها، ويشير إلى هذا قول ابن القيم رحمه الله في الميمية -وهي قصيدة مفيدة جدًّا، وَعْظية، وحُكْمية- فقال[1]:

فَحَـيَّ عَـلَى جَنَّـاتِ عَـدْنٍ فَإِنَّهَـا ... مَنَازِلُـكَ الأُولَى وَفِيهَـا الْمُخَـيَّمُ

(منازلك الأولى)؛ لأنها كانت مسكن أبينا آدم عليه الصلاة والسلام، لكن حصل ما حصل.

ومعلوم أن خطيئة آدم عليه الصلاة والسلام في الأكل من الشجرة، قد كتبت عليه قبل أن يخلق، وقد وقعت محاجَّة بين آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام، فقال له موسى: خيَّبتنا أخرجتنا ونفسك من الجنة، فقال: أتلومني على شيء كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟! فقال النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: «**فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى**»[2]، يعني: غَلَبه في الحُجَّة.

وهذا الحديث احتج به أهل الجبر، قالوا: لأن آدم احتج على موسى بأنه قد كتب عليه، ولا مفرَّ مما كتب.

---

(١) ينظر: «التعليق على ميمية ابن القيم» لفضيلة شيخنا رحمه الله (ص:٦٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعده، رقم (٣٤٠٩)، ومسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٢٦٥٢).

ولكنه عند التأمل لا حجة فيه، ووجه ذلك: أن موسى لم يقل: إنك أذنبت وعصيت، فيقول آدم: تلومني على شيء قد كُتب عليَّ؟ إنما قال: أخرجتنا، والإخراج ليس من فعل آدم؛ بل الذي أخرجه هو الله عزَّ وجلَّ، فهي مصيبة، فيكون آدم احتج بالقدر على المصيبة لا على المعصية، وهذا واضح من لفظ الحديث.

ونظيره في السُّنَّة قول النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: «**الْـمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْـمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ؛ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله، وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله، وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[1].

والمراد بالمؤمن القوي، أي: إيمانًا؛ لأن الوصف يعود على ما السياق فيه، والسياق في المؤمن القوي إيمانًا لا جسمًا.

فإن قال قائل: الحديث لفظه عامٌّ، فلماذا لا يكون المراد بالقوي هنا، قوي الإيمان والجسم جميعًا؟ خاصَّة أن المسلم القوي جسمًا ينفع في الكثير من الأمور التعبدية والمتعدية، مثل: الجهاد، والصيام، والدفاع عن المسلمين؟.

فالجواب: أننا اعتمدنا على أن الوصف إذا عاد إلى شيء، فإنه يتعلق بمدلول ذلك الشيء، فإذا قيل: الرجل القوي، فالمراد به في الرجولة، وهكذا في قوله: «**الْـمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ**»، وعلى هذا فقس.

وأيضًا: هذا المؤمن الذي أعطاه الله تعالى جسمًا قويًّا -أحيانًا- لا يكون فيه خير، وهو قوي مثل البَعير، وأحيانًا يكون رجلًا نحيفًا يكون من أحسن الناس، وأقواهم إيمانًا، وإذا اجتمع هذا وهذا -قوة إيمان مع قوة جسم- فهذا نور على نور.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة، رقم (٢٦٦٤).

وقوله عليه الصلاة والسلام: «وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ» هذا أسلوب أخذه النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم من القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠]، وهكذا ينبغي للإنسان إذا نفى المساواة، وما أشبه ذلك، أن لا يسكت؛ لئلا يظن الظان انحطاط رتبة المفضول عليه، ثم قال: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ» وهذا عام في أمر الدين والدنيا، «وَاسْتَعِنْ بِالله» يعني: ولا تعتمد على قوتك، وحرصك، «وَلَا تَعْجِزْ» أي: لا تمل وتكسل، «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله، وَمَا شَاءَ فَعَلَ» فهنا: قل قدر الله -أي: بعد أن تفعل- ويخف الأمر، قل: قدر الله وما شاء فعل، يعني: واحتج بالقدر، ولا حرج عليك؛ لأنك فعلت ما يمكنك فعله.

ويدل لهذا -أيضًا- أنه من البعيد جدًّا أن موسى -وهو من أولي العزم من الرسل، وهو ابن آدم عليهما الصلاة والسلام- يبعد جدًّا أنه يلوم أباه على معصية تاب منها، واجتباه الله بعدها وهَدَاه، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢١-١٢٢]، ويكون احتجاج آدم من باب الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب، وهذا هو الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في توجيه الحديث، وهو واضح.

وذهب ابن القيم رحمه الله إلى توجيه الحديث بوجهٍ آخر، فقال: إن آدم احتج بالقدر على المعصية، لكن بعد أن تاب وأناب.

وهذا كما لو قلت لشخص فعل معصيةً: يا فلان! كيف تفعل معصية، مثلُك لا يفعلها؟ قال: هذا قضاء وقدر، وأنا أكره المعاصي، ولا أريدها، لكن هذا قضاء وقدر.

فيقول: الاحتجاج بالقدر بعد وقوع المعصية مع التوبة والإنابة لا بأس به، ولا حرج فيه؛ لأن الباطل هو أن يحتج بالقدر على دفع اللوم عنه بفعل المعصية، فهذا هو الباطل، بحيث يقول: أنا ما فعلت شيئًا، أنا مجبر على فعل هذه المعصية! لا تلوموني، ولا توبخني، ولا تمنعني! دعني أستمر، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، فردَّ الله حجتهم، مع أن الله تعالى قال للرسول عليه الصلاة والسلام في آية أخرى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الأنعام:١٠٧]؛ لأن قول المشركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ يريدون بذلك دفع اللوم عنهم، والاستمرار على معاصيهم.

وقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ يريد بذلك أن يسليه وأن يطمئنه، وأن يقول: إن ما وقع فهو بمشيئة الله تعالى، وربك يخلق ما يشاء ويختار، ففَرْق بين هذا وهذا.

وخلاصة توجيه ابن القيم رحمه الله للحديث: أنه إذا كان الإنسان يحتج بالقدر على المعصية بعد التوبة منها، فإنه مقبول، ولا بأس به، وآدم احتج بمعصية تاب منها وأناب، فيكون هذا مقبولًا.

ثم شرح توجيهه هذا بدخول النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم على عليٍّ وفاطمة رضي الله عنهما، وهما لم يصلِّيا ليلًا، واحتجا بأن أنفسهما بيد الله تعالى - يعني: لو شاء الله تعالى لقاما وصليا- فخرج صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم وهو يضرب على فخذه، وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف:٥٤]؛ فاحتجاج علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالقدر في هذه الحال مقبول؛ لأنه نائم، ولو شاء الله تعالى لأيقظه، فلم يحصل منه شيء يتجرأ به على قدر الله تعالى.

وهنا: هل يمكن أن تكون قصة علي وفاطمة رضي الله عنهما حُجَّة لمن يتخلَّفون عن صلاة الفجر؟.

والجواب أن يقال: لو أن الإنسان نام ولم يستيقظ إلا بعد طلوع الشمس لصلاة الفجر، وقد فعل ما يمكن أن ينبهه، لكنه لم ينتبه، لقلنا: لا لوم عليه، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لَيْسَ فِي النَّوْمِ تَفْرِيطٌ**»[1]، وقد أمر عليه الصلاة والسلام بلالًا رضي الله عنه أن يَرْقُبَ لهم الفجر، لكن بلالًا رضي الله عنه نام، ولم يستيقظوا حتى طلعت الشمس.

ولكن لا نقول: اسْهَرْ إلى أن يبقى على الفجر ساعتان ثم نَمْ؟! ولا تجعل عندك منبهًا، أو تجعل صوت المنبه خفيًّا، أو تجعل المنبه عند رأسك فإذا نبَّهك أسكتَّه، ثم استمرَرْتَ في النوم، فهذا ليس بعذر، وعلامة ذلك أنك تجده كل يوم يفعل هذا الشيء.

ولو أنَّ كلَّ إنسانٍ حاسب نفسه محاسبة حقيقية، لعرف أنه مُهْمِل في العبادة، قويٌّ فيما تَهْواه نفسه، فلو كان له موعد مع أحد، لضبط المنبِّه على الوقت الذي يريد، ثم يقول لأهله: انتبهوا لي، وربما أوصى أصحابه بالاتصال عليه بالهاتف، ويجعل الهاتف عند رأسه، كل ذلك احتياطًا منه.

والحاصل: أننا نقول -في حديث المحاجة- أن ما ذهب إليه الحَبْر البَحْر شيخ الإسلام رحمه الله فهو حقٌّ، وواضح، وما ذهب إليه ابن القيم رحمه الله تلميذه فهو -أيضًا- حقٌّ، لكن قد لا نُسَلِّم أن هذا هو مدلول الحديث الذي فيه المحاجَّة.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة...، رقم (٦٨١).

والشاهد من الحديث: أن الناس يمرون على هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكل يعتذر ويحيلها إلى مَن بعده حتى تصل إلى محمد صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم.

ثم قال: «فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ». قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: «أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟! ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ؛ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا -قَالَ:- وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ؛ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ». وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ! إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا»؛ أي: سبعون سَنَة، والخريف أحد فصول السنة الأربعة، وهو الذي يلي الصيف، أما الربيع فيلي الشتاء، وأحسن فصول السنة الربيع، وأسوأها الخريف؛ لأنه يأتي بعد الحر، وقد أثر الحر على الأبدان والأجساد، حتى ذكر ابن القيم رحمه الله أنَّ حفَّارِي القبور يستدينون، ويجعلون أجلَ الدَّيْن وقت الخريف لكثرة الأموات.

فالخريف يطلق أحيانًا ويراد به السَّنة، ومنه حديث: «لَو يَعْلَمُ المَارُّ بَيْنَ يَدَيِ المُصَلِّي مَاذَا عَلَيْهِ لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ»[1]، وفي رواية البزار: «أَرْبَعِينَ خَرِيفًا»[2]، يعني: أربعين سنة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب إثم المار بين يدي المصلي، رقم (٥١٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب منع المار بين يدي المصلي، رقم (٥٠٧).

(٢) أخرجه البزار (٩/ ٢٣٩).

فهذا قعر جهنم سبعون خريفًا، أي: أنك لو ألقيت فيها حجرًا من فوق، لبقي سبعين سنة لا يصل إلى قعرها، كما في حديث أبي هريرة -أيضًا- في الصحيح: أنهم كانوا مع النبي صلَّى الله عليه وسلَّم ذات يوم، فسمعوا وَجْبَةً، يعني: صوت شيءٍ وَقَع، فقال صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: «**أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هَذَا حَجَرٌ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، فَهُوَ يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا**»[1]، أي: أنه سقط الآن، أعاذنا الله وإياكم منها.

وفي هذا الحديث إشكال، وهو أنه تكلم عن الصراط بعد ذكر افتتاح الجنة، والظاهر أن هذا من باب الترتيب الذِّكْري، وليس ترتيبًا واقعيًّا؛ لأن الوصول إلى الجنة لا يكون إلا بعد عبور الصراط.

***

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر جهنم، رقم (٢٨٤٤).

باب فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا».

١٩٦- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَإِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنِ الْمُخْتَارِ بْنِ فُلْفُلٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الْجَنَّةِ وَأَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا».

١٩٦- وَحَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ هِشَامٍ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مُخْتَارِ بْنِ فُلْفُلٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: «أَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ».

١٩٦- وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ زَائِدَةَ، عَنِ الْمُخْتَارِ بْنِ فُلْفُلٍ قَالَ: قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: قَالَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ، لَمْ يُصَدَّقْ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْتُ، وَإِنَّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا مَا يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ».

١٩٧- وَحَدَّثَنِي عَمْرٌو النَّاقِدُ، وَزُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ؛ قَالَا: حَدَّثَنَا هَاشِمُ بْنُ الْقَاسِمِ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: «آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ؛ فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ، لَا أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ»[١].

---

[١] هذه الشفاعة في فتح باب الجنة لأهل الجنة، وهذه -أيضًا- خاصة بالنبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، وعلى هذا فتكون الشفاعات الخاصة بالرسول صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم ثلاثة:

▪ الشفاعة العظمى في أهل الموقف أن يقضي بينهم.

▪ والثانية: الشفاعة في أن يدخلوا باب الجنة.

▪ والثالثة: شفاعته في عمه أبي طالب، ووجه خصوصيتها: أن الكافر لا يمكن أن يُشفع له، إلا أبا طالب، فإن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم استأذن ربه، فأذن له، فشفع له، فخفف عنه النار، فصار أخف أهل النار عذابًا، لكن عليه نعلان يغلي منهما دماغه -والعياذ بالله-، واستأذن النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم ربه أن يستغفر لأمَّه، فلم يأذن له.

فإن قيل: كيف لم يأذن له، وأمُّه أقرب إليه من عمه؟.

فالجواب: أن عمه إنما شَفع له، من أجل ما حصل منه من النفع للإسلام، وللنبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، والذود عنه، لكن لما لم يكن مؤمنًا، لم تنفعه هذه الأعمال في الآخرة، إلا على هذا القَدْر، أما أمُّه فقد ماتت قبل النبوة بزمان، ثم إنه استأذن أن يستغفر لأمه، وهذا يقتضي أن يغفر لها كل ذنب، وهذا لا يمكن.

والحاصل: أنه يجتمع له صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم صنفان من الشفاعة، صنف في دفع ما يضر، وهو الهم والكرب الذي يصيبهم، وصنف في حصول ما يسر: وهو الشفاعة في فتح باب الجنة.

أما الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها، فهذه له ولغيره من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، والمؤمنين، والملائكة.

* * *

باب اخْتِبَاءِ النَّبِيِّ ﷺ دَعْوَةَ الشَّفَاعَةِ لأُمَّتِهِ

١٩٨- حَدَّثَنِي يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم قَالَ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُوهَا، فَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

١٩٨- وَحَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ؛ قَالَ زُهَيْرٌ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَخِي ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عَمِّهِ أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِالرَّحْمَنِ؛ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ، وَأَرَدْتُ إِنْ شَاءَ اللهُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

١٩٨- حَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ؛ قَالَ زُهَيْرٌ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَخِي ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عَمِّهِ، حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ أَسِيدِ بْنِ جَارِيَةَ الثَّقَفِيُّ مِثْلَ ذَلِكَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم.

١٩٨- وَحَدَّثَنِي حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَى، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ؛ أَنَّ عَمْرَو بْنَ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ أَسِيدِ بْنِ جَارِيَةَ الثَّقَفِيَّ أَخْبَرَهُ؛ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ لِكَعْبِ الأَحْبَارِ: إِنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم قَالَ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُوهَا، فَأَنَا أُرِيدُ إِنْ شَاءَ اللهُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»؛ فَقَالَ كَعْبٌ لأَبِي هُرَيْرَةَ: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: نَعَمْ.

١٩٩- حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَأَبُو كُرَيْبٍ -وَاللَّفْظُ لأَبِي كُرَيْبٍ-؛ قَالَا: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا».

١٩٩- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ عُمَارَةَ -وَهُوَ: ابْنُ الْقَعْقَاعِ-، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، يَدْعُو بِهَا فَيُسْتَجَابُ لَهُ فَيُؤْتَاهَا، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

١٩٩- حَدَّثَنَا عُبَيْدُ الله بْنُ مُعَاذٍ الْعَنْبَرِيُّ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مُحَمَّدٍ -وَهُوَ ابْنُ زِيَادٍ-؛ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ دَعَا بِهَا فِي أُمَّتِهِ فَاسْتُجِيبَ لَهُ، وَإِنِّي أُرِيدُ إِنْ شَاءَ اللهُ أَنْ أُؤَخِّرَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

٢٠٠- حَدَّثَنِي أَبُو غَسَّانَ الْمِسْمَعِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الْـمُثَنَّى وَابْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا -وَاللَّفْظُ لأَبِي غَسَّانَ- قَالُوا: حَدَّثَنَا مُعَاذٌ -يَعْنُونَ: ابْنَ هِشَامٍ- قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ قَتَادَةَ، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ؛ أَنَّ نَبِيَّ الله صَلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ دَعَاهَا لأُمَّتِهِ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

٢٠٠- وَحَدَّثَنِيهِ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، وَابْنُ أَبِي خَلَفٍ؛ قَالَا: حَدَّثَنَا رَوْحٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، بِهَذَا الإِسْنَادِ. (ح) وَحَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ. (ح) وَحَدَّثَنِيهِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعِيدٍ الْـجَوْهَرِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ؛ جَمِيعًا عَنْ مِسْعَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ، بِهَذَا

الإِسْنَادِ، غَيْرَ أَنَّ فِي حَدِيثِ وَكِيعٍ قَالَ: قَالَ: «أُعْطِيَ». وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم.

٢٠٠- وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى، حَدَّثَنَا الْـمُعْتَمِرُ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَنَسٍ؛ أَنَّ نَبِيَّ الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم قَالَ؛ فَذَكَرَ نَحْوَ حَدِيثِ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ.

٢٠١- وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي خَلَفٍ، حَدَّثَنَا رَوْحٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ؛ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله يَقُولُ عَنِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فِي أُمَّتِهِ، وَخَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

---

[١] هذه ثلاثة أحاديث عن أبي هريرة، وعن أنس، وعن جابر رضي الله عنهم أجمعين، والمعنى واحد، فقد أخبر النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم أن الله تعالى أعطى كلَّ نبيٍّ دعوة يستجيب له فيها في أمته، وليست دعوة خاصة له ولكن لأمته، فكل نبيٍّ استعجل دعوته فدعا بها.

أما النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم فإنه أجَّل دعوته ليوم القيامة؛ لتكون شفاعةً في أمته، وهذا يدل على شفقته صلوات الله وسلامه عليه على أمته، وعلى محبته الخيرَ لها، وعلى أن الأمَّة أحوج إلى دعوةٍ مستجابةٍ يوم القيامة منها في هذه الدنيا، وإلا فمن المعلوم أن النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم دعا دعوات كثيرة في الدنيا في أمته، واستُجيب له، ولكن هذه دعوة أعظم من كل الدعوات التي حصَلت، والناس في ذلك الوقت أحوج ما يكونون لها منهم في هذه الدنيا، ولهذا فإن الحديث يعتبر من أحاديث الشفاعة.

* * *

باب دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ لأُمَّتِهِ وَبُكَائِهِ شَفَقَةً عَلَيْهِمْ

٢٠٢- حَدَّثَنِي يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى الصَّدَفِيُّ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ؛ أَنَّ بَكْرَ بْنَ سَوَادَةَ حَدَّثَهُ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم تَلَا قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ الآيَةَ؛ وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللهُمَّ أُمَّتِي! أُمَّتِي!». وَبَكَى فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم بِمَا قَالَ -وَهُوَ أَعْلَمُ- فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ[1].

---

[١] هذا الحديث -كما هو في الترجمة- يدل على شفقة النبي صلَّى الله عليه وسلَّم على أمَّته، ويدلُّ على عناية الله تعالى به، وكرمه عند الله، ووجاهته عنده.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]؛ فيه إشكال، حيث قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ولم يقل: فإنك أنت الغفور الرحيم، مع أن ظاهر السياق يقتضي ذلك.

والجواب عن هذا أن يقال: إن الآية فيها جمع بين العذاب والمغفرة: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ولم تتمحَّض للمغفرة، فلهذا جاء ذِكْر العِزَّة والحكمة التي فيها القدرة على أخذ المكذبين، والحكمة في التجاوز عن الذين تقتضي الحكمة أن يغفر الله تعالى لهم.

باب بَيَانِ أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ فَهُوَ فِي النَّارِ وَلا تَنَالُهُ شَفَاعَةٌ وَلا تَنْفَعُهُ قَرَابَةُ الْمُقَرَّبِينَ

٢٠٣- حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ الله أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: «فِي النَّارِ». فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ فَقَالَ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ»[١].

---

[١] هذا من السؤال -سؤال هذا الرجل عن أبيه- الذي لا ينبغي؛ لأن أباه مات في الجاهلية، فكان الأولى أن لا يسأل عنه، لكنه سأل فقال له النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: «فِي النَّارِ»، فلما قفَّى الرجل وانصرف، دعاه صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم وقال: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ» جبرًا لخاطره.

فإن قال قائل: أليس أبو النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم ومَن مات قبل البعثة في زمن الفترة؟ فلنا عن ذلك جوابان:

الجواب الأول: بلى، هم في زمن الفترة، لكن هناك بقايا من الأديان من وجه، ولكنهم لم يبحثوا عنها، ولهذا لما بحث ورقة بن نوفل رضي الله عنه عن الأديان، تمسك بالنصرانية.

الجواب الثاني: أن يقال أهل الفترة: مَنْ علمنا أنهم في النار، فهم في النار ولا نُبالي، ومَن لم نَعلم حالهم، فنقول: إن أمرهم إلى الله عزَّ وجلَّ.

فمثلًا: أبو النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم في النار، وعمُّه في النار، وأمُّه لا تستحق المغفرة، وهذا الرجل الذي قال: أين أبي؟ نقول: أبوه في النار.

والحُكم لله عزَّ وجلَّ؛ فإذا أخبرنا رسوله عليه الصلاة والسلام عن شيء، فإننا لا نتوقف، ونقول: إن الله تعالى ليس بينه وبين الناس نسب، فمن استحق النار، فهو من أهل النار، أيًّا كان، ومَنْ لا فلا.

ولذلك لما وعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أباه أن يستغفر له، استغفر، ولما تبيَّن له أنه عدو لله تعالى تبرَّأ منه، وقال لقومه: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة:٤].

ولما قال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١]، هذه الآية فيها استثناء؛ لأن قوله: ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ خرج منها أبوه، وهذا الدعاء قبل أن يعلم عن أبيه، أو قبل أن ييأس منه، ولهذا نقول: إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أمه مؤمنة وأبوه كافر، ونوح عليه الصلاة والسلام أمه وأبوه مؤمنان؛ لأنه قال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح:٢٨]، ولم يَرِد استثناء أحدٍ من أبيه أو أمه، فهما مؤمنان.

والرسول صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم إذا قال: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ» فهو في النار، ولا يمكن أن نقول: إنه ليس في النار، وإذا قال: «إنه استأذن ربه أن يستغفر لأمِّه فلم يؤذن له» نقول: لا؟! كلا، بل نقول: الأمر إلى الله، والحُكم له سبحانه وتعالى.

وهذا مما يدلُّ على كمال قدرة الله عزَّ وجلَّ، أن يخرج مِن صلب هذا الرجل من هو أكرم البشر، وهو محمد صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم.

فإن قيل: ألا يحمل قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ» على أنه مستحِقٌّ لذلك، ولكن قد يَدْخل وقد لا يدخل؟!

فالجواب: أن ذلك خلاف الظاهر، وإلا للزم أن يكون قوله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: «أَبُو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ...» الحديث[1] أي: أنه مستحقٌّ لدخول الجنة، وقد يدخلها وقد لا يدخلها.

* * *

(١) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف، رقم (٣٧٤٧)، (٣٧٤٨)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في الخلفاء، رقم (٤٦٤٩)، وابن ماجه: المقدمة، باب فضائل العشرة...، رقم (١٣٣).

باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾

٢٠٤- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، وَزُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ؛ قَالَا: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ عَبْدِ الْـمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَـمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دَعَا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ؛ فَقَالَ: «يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي هَاشِمٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْـمُطَّلِبِ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ! أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الله شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِـهَا».

٢٠٤- وَحَدَّثَنَا عُبَيْدُ الله بْنُ عُمَرَ الْقَوَارِيرِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ عَبْدِالْـمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، بِهَذَا الإِسْنَادِ، وَحَدِيثُ جَرِيرٍ أَتَمُّ وَأَشْبَعُ.

٢٠٥- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ نُمَيْرٍ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، وَيُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ؛ قَالَا: حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَـمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قَامَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم عَلَى الصَّفَا فَقَالَ: «يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْـمُطَّلِبِ! يَا بَنِي عَبْدِ الْـمُطَّلِبِ! لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الله شَيْئًا سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ».

٢٠٦- وَحَدَّثَنِي حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَى، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ الْـمُسَيَّبِ، وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ؛ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ

﴿ٱلْأَقْرَبِينَ﴾: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللهِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ! لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ! سَلِينِي بِمَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا».

٢٠٦- وَحَدَّثَنِي عَمْرٌو النَّاقِدُ، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ عَمْرٍو، حَدَّثَنَا زَائِدَةُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ ذَكْوَانَ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم نَحْوَ هَذَا.

٢٠٧- حَدَّثَنَا أَبُو كَامِلٍ الْجَحْدَرِيُّ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، حَدَّثَنَا التَّيْمِيُّ، عَنْ أَبِي عُثْمَانَ، عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ الْمُخَارِقِ، وَزُهَيْرِ بْنِ عَمْرٍو؛ قَالَا: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قَالَ: انْطَلَقَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم إِلَى رَضْمَةٍ مِنْ جَبَلٍ فَعَلَا أَعْلَاهَا حَجَرًا، ثُمَّ نَادَى: «يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافَاهْ! إِنِّي نَذِيرٌ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَى الْعَدُوَّ فَانْطَلَقَ يَرْبَأُ أَهْلَهُ، فَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ فَجَعَلَ يَهْتِفُ يَا صَبَاحَاهْ».

٢٠٧- وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى، حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ، عَنْ أَبِيهِ، حَدَّثَنَا أَبُو عُثْمَانَ، عَنْ زُهَيْرِ بْنِ عَمْرٍو، وَقَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم بِنَحْوِهِ.

٢٠٨- وَحَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)؛ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا فَهَتَفَ: «يَا صَبَاحَاهْ!». فَقَالُوا: مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتِفُ

قَالُوا: مُحَمَّدٌ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ: «يَا بَنِي فُلَانٍ! يَا بَنِي فُلَانٍ! يَا بَنِي فُلَانٍ! يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! يَا بَنِي عَبْدِ الْـمُطَّلِبِ!»، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْـجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟!»، قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا. قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»؛ قَالَ: فَقَالَ أَبُو لَـهَبٍ: تَبًّا لَكَ! أَمَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِـهَذَا ثُمَّ قَامَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَـهَبٍ وَقَدْ تَبَّ)؛ كَذَا قَرَأَ الأَعْمَشُ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ.

٢٠٨- وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَأَبُو كُرَيْبٍ؛ قَالَا: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، بِهَذَا الإِسْنَادِ قَالَ: صَعِدَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم ذَاتَ يَوْمٍ الصَّفَا فَقَالَ: «يَا صَبَاحَاهْ!». بِنَحْوِ حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ، وَلَـمْ يَذْكُرْ نُزُولَ الآيَةِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1].

---

[١] قوله صلى الله عليه وسلم: «يَا صَبَاحَاهْ!» هذه كلمة تُقال عند العرب؛ وتعني: أنه صبَّحكم العَدُوُّ.

وقول ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: لَـمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْـمُخْلَصِينَ)؛ هذا يحتمل أنه عطف تفسير، أما هذا فليس بقرآنٍ؛ لأن الأَقْرب في الغالب أنه أَخْلص، والعشيرة: هم الرهط، ويحتمل أنه قرآنٌ لكن نُسخ لفظُه، والله أعلم.

وهذا الحديث بجميع سياقاته واختلاف ألفاظه، فيه فوائد، منها:

١- كمال امتثال أمر النبي صلَّى الله عليه وسلَّم لأمر الله تعالى؛ لأنه لما قال له: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] فَعَل وقام بأعلى الجبل، ونادى بأعلى

صوته: «يَا صَبَاحَاهْ!»، واجتمع الناس، فأنذرهم عليه الصلاة والسلام، ولم يتوانَ، ولم يذهب إلى واحدٍ تلو الآخر، بل أنذرهم جميعًا، وخصَّ وعمَّ، حتى وصل الأمر إلى أن قال: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ الله! سَلِينِي بِمَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئًا».

٢- ويدل على أن النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم كريم في غاية الكرم؛ لأنه قال لعشيرته: «سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ».

٣- ويدل على أنه يجوز أن يُعْطَى الكافر من المال، وأنه لا حرج في ذلك.

ولقد ذكر الله تعالى ذلك بعد أن تمت أكثر أحكام الشريعة، وذلك في سورة الممتحنة حيث قال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨]، فالبِر فَضْل، والقِسْط عَدْل، فبيَّن الله تعالى أنه لا ينهانا أن نُعطي الكافر، أو نَبرَّه بالصدقة، والهدية، والهبة، بشرط أن لا يكون قاتلنا في الدِّين، أو أخرجنا من ديارنا، أما إذا كان قاتلنا في الدِّين، فلا كرامةَ له.

٤- وفيه أن رسول الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم عنده من الحزم والشجاعة والإقدام ما ليس عندنا، فإنه عليه الصلاة والسلام قام في هذا المكان الذي الغلبةُ فيه لكفار قريش، فدعا الناس، دعاهم حتى حضروا؛ لأن القلوب بيد الله عزَّ وجلَّ، بعد أن علموا أنه محمد عليه الصلاة والسلام، حضروا رغمًا عن أُنوفهم، واستمعوا إلى ما قال.

٥- أنه يجب علينا نحن أن نحرص على عشيرتنا الأقربين قبل كل شيء، يبدأ الإنسان بأهله، ثم بأقاربه، ثم بمَن وراءهم، الأقرب فالأقرب؛ لأن هؤلاء

لـهم حقٌّ علينا، فإذا لم نقُم نحن بتوجيههم، ودعوتهم إلى الـحق، فمَن الذي يوجههم ويدعوهم؟.

ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم:٦]؛ وهذا التحميل من الله تعالى يقتضي أنه سوف يسألنا يوم القيامة عن ذلك، سيقول: إني أمرتكم أن تقوا أنفسكم وأهليكم نارًا، فكما نُسأَل عن أنفسنا، فسنُسأَل عن أهلينا، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «الرَّجُلُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[1]، وبهذا يتبين أن الأمانة ليست بهيِّنة.

٦- أخذ العلماء رحمهم الله من ذلك فائدة، وهي أن القريب أو الأقرب هو من الجد الرابع فما دون، فمثلًا: لو وقَّف الإنسان على أقاربه، فإنه يشمل من الجد الرابع ومن نزل، ومن فوقه لا يدخل في الأقارب.

وكذلك نقول في صلة الأقارب الذين تجب صلتهم: هم الذين يشاركونك في الجد الرابع فما دون، وأما مَن سواهم، أو من فوقهم فإنهم لا يدخلون في اسم القرابة.

* * *

(١) سبق تخريجه (ص:٤٠٦).

باب شَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ لأَبِي طَالِبٍ وَالتَّخْفِيفِ عَنْهُ بِسَبَبِهِ

٢٠٩- وَحَدَّثَنَا عُبَيْدُ الله بْنُ عُمَرَ الْقَوَارِيرِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْمُقَدَّمِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الأُمَوِيُّ؛ قَالُوا: حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ الله! هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ، قَالَ: «نَعَمْ؛ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».

٢٠٩- حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ الْحَارِثِ قَالَ: سَمِعْتُ الْعَبَّاسَ يَقُولُ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! إِنَّ أَبَا طَالِبٍ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَنْصُرُكَ فَهَلْ نَفَعَهُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ؛ وَجَدْتُهُ فِي غَمَرَاتٍ مِنَ النَّارِ فَأَخْرَجْتُهُ إِلَى ضَحْضَاحٍ».

٢٠٩- وَحَدَّثَنِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ سُفْيَانَ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عُمَيْرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ الْحَارِثِ قَالَ: أَخْبَرَنِي الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. (ح) وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ سُفْيَانَ؛ بِهَذَا الإِسْنَادِ، عَنِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم، بِنَحْوِ حَدِيثِ أَبِي عَوَانَةَ.

٢١٠- وَحَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، عَنِ ابْنِ الْهَادِ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ خَبَّابٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ؛ أَنَّ رَسُولَ الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم ذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ فَقَالَ: «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ

يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ»[١].

---

[١] هذا الحديث فيه الشفاعة لأبي طالب، مع أنه مات على الكفر، فيكون مستثنًى من قول الله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

أو يقال في الجواب وجه آخر: وهو أن المنفي في القرآن هي الشفاعة التي يخلص بها من شُفع له من العذاب خُلوصًا تامًّا.

وفي حديث الشفاعة لأبي طالب من الفوائد:

١- أنه يجوز إسناد الشيء إلى سببه؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «**فَأَخْرَجْتُهُ إِلَى ضَحْضَاحٍ**»، مع أن الذي أخرجه الرب عزَّ وجلَّ.

٢- أنه يجوز إسناد الشيء إلى سببه بلفظ: لولا؛ لقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»، والشاهد قوله: «**وَلَوْلَا أَنَا**».

وعلى هذا فيجوز أن أقول: لولا فلان لِمتُّ، كأن يكون رجلٌ سقط في النهر، فجاء إنسان فاستنقذه من الغرق، فيجوز أن يقول: لولا فلان لغرِقت، أو لهلَكت، أو ما أشبه ذلك؛ لأن هذا الذي أنقذه سبب ظاهر معلوم، وإضافة الشيء إلى سببه الظاهر المعلوم لا يمكن -أبدًا- أن تأتي الشريعة بمنعه؛ لأنه يُوافق الفطرة، ويُوافق العقل، كما أخبر الله تعالى في القرآن -في آيات كثيرة- أن أهل الجنة يجزون بسبب أعمالهم، وما أشبه ذلك، فهذا لا بأس به.

أما إذا أُضيف إلى سبب موهوم -ليس معلومًا- أو أُضيف إلى سبب يُعلم بطلانه، فإن هذا لا يجوز، بل يُعَدُّ نوعًا من الشرك.

مثال الأول: ما يحصل عند كثير من الناس، من إضافة السبب المباشر إلى سببه الموهوم؛ كقول بعضهم: لولا كذا لحصل كذا وكذا، وهو ليس سببًا له، مثل أن يلبس قلادةً عن العين، ويقول: لولا هذه القلادة لأصابتني العين، فهذا لا يجوز؛ لأن هذا موهوم.

مثال الثاني: أن يقول: لولا فلان الميت لهلَكت، فهذا -أيضًا- لا يجوز، بل هذا شرك أكبر؛ لأن السبب هنا يعلم بطلانه، فالأقسام إذن ثلاثة:

القسم الأول: أن يُضاف السبب إلى شيء معلوم.

القسم الثاني: أن يُضاف السبب إلى شيء موهوم.

القسم الثالث: أن يُضاف السبب إلى شيء معدوم.

فإن قال قائل: ما تقولون فيما رواه ابن أبي حاتم رحمهما الله، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: إن من التنديد قول الإنسان: لولا البط في الدار؛ لأتانا اللصوص[1]؟.

فنقول: إن السلف الصالح رحمهم الله -إذا صح الأثر- يشددون في سد ذرائع الشرك، حتى لا يقع أحدٌ في ذلك، وحتى لا يتوهَّم واهمٌ أن البط هي التي تطرد اللصوص بنفسها، وإلا فإن ابن عباس رضي الله عنهما لا يمكن أن ينكر السبب المعلوم.

والبط في البيت عادة إذا جاء إنسان أجنبي تصرُخ وتصيح، لتنبِّه أهل البيت، ولهذا ترى الكلاب -التي يباح اقتناؤها- إذا جاء الرجل الأجنبي، شرَعت في نباحها حتى يستيقظ صاحبها.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢٢٩).

فهذا لا يمكن أن ينكَر، لكن السلف رحمهم الله -كما تقدم- يحرصون غاية الحرص، ويشدِّدون غاية التشديد في سدِّ ذرائع الشرك.

ولدينا في هذا الباب عبارات، فلننظر أيها أصح؟.

الأولى: (لولا أن الله تعالى أنقذني بفلان لهلَكت)، هذه صحيحة، وهي من أحسن العبارات.

الثانية: (لولا أن فلانًا أنقذني لغرقت)، هذا صحيح -إذا كان أنقذه حقيقةً- أما إذا كان ميتًا، فهذا لا يجوز.

الثالثة: (لولا الله ثم فلان لغرقت)، فهذه جائزة.

الرابعة: (لولا الله ففلان لغرقت)، فهذه بَيْن بَيْن.

الخامسة: (لولا الله وفلان)، فهذه غير جائزة؛ لأنك شرَّكت الله تعالى مع فلان بحرف يقتضي التسوية، وهذا لا يجوز، والله أعلم.

* * *

باب أَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا

٢١١- حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَبِي بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ أَبِي عَيَّاشٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ؛ أَنَّ رَسُولَ الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم قَالَ: «**إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَنْتَعِلُ بِنَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي دِمَاغُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ**».

٢١٢- وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا ثَابِتٌ، عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّ رَسُولَ الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم قَالَ: «**أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ**».

٢١٣- وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، وَابْنُ بَشَّارٍ -وَاللَّفْظُ لِابْنِ الْمُثَنَّى-؛ قَالَا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا إِسْحَاقَ يَقُولُ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَخْطُبُ وَهْوَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم يَقُولُ: «**إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ**».

٢١٣- وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: «**إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا وَإِنَّهُ لأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا**»[1].

---

[١] هذه أربعة أحاديث: حديثان للنعمان بن بشير، وحديث لأبي سعيد الخدري، وحديث للعبَّاس رضي الله عنهم أجمعين، وفي هذه الأحاديث فوائد:

١- تصريحها بأن أبا طالب في النار، وأنه أهون أهل النار، وهذا خبر لا يمكن أن يدخله النسخ.

٢- وفيها ردٌّ صريح على الرافضة الذين يدَّعون أن أبا طالب ليس في النار؛ بل إني رأيت لهم كتيبًا وزِّع قبل سنوات، ادَّعى فيه كاتبه -أظن أنه- قال: إنه نبي، وهذا -والعياذ بالله- مِن كذبهم، ومِن غُلُوِّهم، ولو أنهم رجعوا إلى الهدى، وأعطوا كل إنسان حقه؛ لكانوا أهدى سبيلًا، وأقرب إلى الله عزَّ وجلَّ.

٣- في الأحاديث دليل على أن النار تتفاوت، فيها هَيِّن، وفيها أهون.

٤- أن الذي يكون أهون أهل النار عذابًا لا يَرى أن أحدًا أشدُّ منه عذابًا، وذلك لشدة الألم والعذاب القلبي؛ لأن الإنسان لو رأى أن غيره مثله أو أشد؛ لهان الأمر عليه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩]، يعني: لا ينفعكم اشتراككم في العذاب، بينما الناس في الدنيا إذا شاركهم أحدٌ في المأساة هانَتْ عليهم، كما قالت الخنساء رضي الله عنها -وهي ترثي أخاها صخرًا-:

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

وهذا أمر مشاهَد.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ» والعياذ بالله، فإذا كان يغلي منهما دماغه، وهو أعلى ما فيه، وأبعد ما يكون عن قدميه، فما دونه من باب أشدّ، أعاذنا الله وإياكم من النار.

* * *

باب الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ لا يَنْفَعُهُ عَمَلٌ

٢١٤- حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ، عَنْ دَاوُدَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»[١].

---

[١] الكافر لا ينفعه عمله؛ لأن عمله غير مقبول منه؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤]، ولقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

وكان ابن جدعان هذا في الجاهلية، وفي «الحاشية»[(١)]: «ابن جدعان: جَوَاد معروف، اسمه: عبد الله، قال في «القاموس»: كانت له جفنة يأكل منها القائم والراكب».اهـ يعني: أنها كبيرة مرتفعة.

وقد كان يَصِل الرحم، وصلةُ الرحم لا شك أنها من أفضل الأعمال الصالحة، ويُطعم المسكين، وهذا -أيضًا- من أفضل الأعمال، لكنه لا ينفعه ذلك، وقد علَّل النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم ذلك بقوله: «إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»، ولو قال ذلك؛ لآمن باليوم الآخر، ولسأل الله تعالى المغفرة، ولنفعه ذلك.

---

(١) حاشية صحيح مسلم (١/ ١٣٦) ط. العامرة.

وفي الحديث فوائد، منها:

١- أن فيه دليلًا على أنه لا بأس أن يُثنى على الميت الكافر بما يستحق، ولا يعارِض ذلك نهي النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم عن سب الأموات، حيث قال: «لَا تَسُبُّوا الأَمْوَاتِ فَإِنَّهُمْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا»[١]؛ لأن هذا ليس المراد منه السَّب؛ بل المراد به بيان الحكم، والأعمال بالنيات، أما لو أخذ شخص يسب الكافر شماتة به، فإن ذلك لا فائدة منه، فيفرَّق بين مَن يريد بيان الحكم الشرعي، ومن يريد مجرَّد السبِّ.

٢- وفي هذا الحديث دليل على فضيلة هذا الدعاء: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين»، ومنه -أيضًا-: «رَبِّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ»[٢].

فإن قيل: مَن عمل مثل عَمل ابن جدعان، ثم أسلم، فهل يثبت عمله؟.

فالجواب: نعم، يَثْبت، فإن العمل الصالح الذي قبل الإسلام يكتب له، كما قال النبي صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم -فيما سبق-: «أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ»[٣].

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما ينهى عن سب الأموات، رقم (١٣٩٣).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب يمين الإمام، رقم (٧٠٩).
(٣) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب من تصدق في الشرك ثم أسلم، رقم (١٤٣٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده، رقم (١٢٣).

باب مُوَالاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُقَاطَعَةِ غَيْرِهِمْ وَالْبَرَاءَةِ مِنْهُمْ

٢١٥- حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ قَيْسٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ يَقُولُ: «أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي -يَعْنِي: فُلَانًا- لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ»[١].

---

[١] هذه الموالاة والمعاداة أمرها مهمٌّ وعظيم، فيجب على الإنسان أن تكون موالاته ومعاداته لله تعالى، يوالي لله، ويعادي لله.

وليعلم أن الموالاة والمعاداة، تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: موالاة مطلقة، وهي للمؤمن الذي لم يتلبس بمعصية، فإن هذا المؤمن نواليه موالاة مطلقة، ونحبُّه حبًّا مطلقًا، ويجب علينا مناصرته بكل حالٍ.

القسم الثاني: عكس ما سبق، وهي المعاداة المطلقة، وهي لمن ليس فيه إيمان، كالكافر، فيجب علينا أن نعاديه معاداة مطلقة، فلا نحبُّه، ولا نوادُّه، أي: نطلب مودَّته، ولا نناصره.

وقد صرح كثير من العلماء رحمهم الله: أن مَن ناصر كافرًا على المسلمين، فإنه كافرٌ؛ لأن هذه من أعظم الموالاة.

القسم الثالث: الموالاة والمعاداة غير المطلقة، بمعنى: أن نوالي من وجه، ونعادي من وجه، وهذا في المؤمن الفاسق، نواليه من جهة إيمانه، فنحبه على ما معه من الإيمان، ونناصره على ما معه من الإيمان، ونكرهه على ما معه من الفسوق، وكذلك نعاديه على ما معه من الفسوق، ولا نناصره على ذلك، أي: على فُسوقه.